العرب
الأربعاء 2019/07/10
السنة 42 العدد 11403

# معهد العالم العربي في باريس يحتفي بالساحرة المستديرة

## كرة القدم طريق الشعوب إلى التحرر ونواة الهويات وصانعة الربيع العربي

كرة القدم ليست مجرد لعبة أو رياضة، فهي تتداخل مع مناطق أشمل وأكبر، قد تؤدي إلى حروب بين دول أو إسقاط أنظمة أو تحديد سياسات، وقد تؤدي إلى إنقاذ حياة الناس أيضا كما روى الكاتب الأورغواياني إدواردو غاليانو الذي يرى أنّ كرة القدم هي مرآة للعالم، وهي تقدم ألف حكاية وحكاية مهمة؛ فيها المجد والاستغلال والحب والبؤس، وفيها يتبدّى الصراع بين الحرية والخوف. ومن هذا الدور المحوري انطلق معرض جديد حول كرة القدم في باحة معهد العالم العربي بباريس.

عمار المأمون
كاتب سوري

لا يمكن لأي زائر لباريس ألا يمر بجانب معهد العالم العربي على ضفة نهر السين، فعمارته الحديثة تغوي السياح والمارّة، كونه واحدا من معالم المدينة الثقافية التي تركت بصمة مميزة في مدينة الأنوار، لكن من يمر بجانبه الآن، يلاحظ أن ساحته تحوي ملعب كرة قدم، بمساحة 12X21 مترا، ويمكن للمارة والفضوليين أن يتابعوا فيها مباريات الهواة، بل ويمكن أيضا حجز الملعب مجانا ولعب مباراة وديّة مع الأصدقاء، خمسة لاعبين ضد خمسة لاعبين، لتتحول ساحة المعهد إلى فضاء للترفيه، سواء كان المرء يلعب أو يشجع، وكأن الكرة ذات تأثير سحري يأسر كلّ من حولها.

> كرة القدم في العالم العربي وفرنسا لها دور كبير خاصة في علاقتها بالهوية الوطنية العربيّة وثوراتها التحررية

ملعب المدينة السابق أنشأه المعهد في إطار المعرض الذي يستضيفه بعنوان "كرة القدم والعالم العربيّ- ثورة الكرة المستديرة"، والذي نكتشف فيه دور كرة القدم في العالم العربي وفرنسا وعلاقتها مع الهوية الوطنية العربية وثوراتها التحررية، كذلك نشاهد كيف تحول المهاجرون من نجوم للكرة إلى محركين للخطاب السياسي والحكاية الوطنية الفرنسية، والأهم بإمكاننا مشاهدة كأسي العالم اللذين حازت عليهما فرنسا عامي 1998 و2018، لندخل عالما صاخبا مليئا بالسحر والسياسة والترفيه.

فضاء المعرض مصمم لنتبع توزع اللاعبين في ملعب كرة القدم، أي هناك 11 مفهوما يدور حولها المعرض، نشاهد فيها صورا فوتوغرافية من الأرشيف، ومقابلات وعددا من التجارب التفاعلية والكثير من الأغراض من آكف وكرات وأطقم ترسم تاريخ كرة القدم، لكن المثير للاهتمام هو ليس فقط اللعبة ذاتها، بل علاقتها مع السياسة، إذ نشاهد فقط مخططات الملاعب التي ستنشئها قطر، التي تستضيف كأس العالم عام 2022، وما يبدو للوهلة الأولى امتيازا عربيا، دون أي ذكر للعمال الذين قضوا في عمليات البناء هذه.

ذات الشيء نراه في مصر التي تستضيف كأس أمم أفريقيا، وهنا يشير المعرض إلى أن كرة القدم ليست إلا جزءا من الدعاية السياسية، ووسيلة لتلميع صورة هذين البلدين، بسبب انتهاكات حقوق الإنسان والوضع السياسي فيهما، لتتحول اللعبة وسحرها إلى وسيلة لتبييض السمعة وتحريك الرأي العام الدولي بل وأحيانا تغييره.

نتعرف أيضا على دور كرة القدم في الصراع ضد الأنظمة الاستعمارية، إذ نشاهد صور وأطقم فريق كرة القدم الذي أنشأته جبهة التحرير الوطنيّة في الجزائر عام 1958، للنضال ضد فرنسا، الذي سمي حينها فريق الاستقلال، الذي استقال مؤسساه من فريقيهما الفرنسيّين في سبيل التعريف بقضيّة الجزائر التحررية في أنحاء أوروبا، كما نشاهد أيضا كرة مصنوعة من الإسمنت، أنجزها الفنان الفلسطيني خالد جرار، حيث نكتشف أن مكوناتها تعود لجدار الفصل العنصري الذي أقامته إسرائيل.

هذه العلاقة مع الأنظمة الاستعمارية وما بعدها تتجلى في شخص المغربي العربي بن مبارك الذي يكرس المعرض قسما خاصا له، كأول لاعب كرة قدم أفريقي نال شهرة كبيرة في أوروبا، فاللؤلؤة السوداء (هذا كان لقبه) الذي أسر قلوب المشاهدين يحضر في المعرض وزيه كواحد من الأشكال الثقافية للاستعمار وما بعده، وكأنه الأب الروحي لزين الدين زيدان ورشيد مخلوفي ومحمد صلاح، وغيرهم من المهاجرين والعرب الذين تحولوا إلى نجوم كرة القدم.

القسم الأكثر إثارة للاهتمام في المعرض هو الذي يتناول "الألتراز" في العالم العربي، أو المشجعين المتفانين في ولائهم لفرقهم، والدور الذي لعبوه في الربيع العربي، كما في مصر، وكيف أن تنظيمهم للمظاهرات والاحتجاجات كالتراز الأهلي والزمالك، لعب دورا في خلق صورة الربيع العربي واحتلال ميدان التحرير والمطالبة برحيل مبارك، ويشير المعرض إلى ما حدث في ستاد بورسعيد، والذي أدى إلى مقتل 74 شخصا والذي يقال إن ما حدث يومها كان مخططا له مسبقا، وليس نتاج أعمال شغب عاديّة، ذات هذا التأثير لعبه الألتراز في تونس، الذين ساهموا في تنظيم المظاهرات بل وربما ضبط حركة الكتلة البشريّة التي وقفت بوجه النظام السابق وساهمت في هرب الرئيس.

يتناول المعرض أيضا كرة القدم النسائية في الأردن وأيضا الدور الذي لعبته الكرة في لبنان، إلى جانب صور ووثائق متنوعة تكشف أثر هذه اللعبة ودورها كظاهرة ثقافية وسياسية لا يستهان بها، فهي ليست مجرد لعبة، بل أداة سياسيّة توظفها الحكومات وأحيانا الشعوب للمطالبة بسيادتها الذاتيّة.

لعبة تمثل حلم الحرية للشعوب

# المساواة الملفقة والانتماء إلى مجتمع الحداثة

شرف الدين ماجدولين
كاتب مغربي

هل تقبل الكتابة المساواة، حين تنبع من إرادة فردية حرة، ومستقلة عن الجماعة؟ أعتقد أنه لا يمكن الجمع بين الحرية وشرط العدالة في فعل الإبداع، فالحرية إطلاق للقدرة، والعدالة مكافأة وتجميع مختل، ونفي للملكة والطاقة، والصوت، التي من دونها لا يستقيم الأسلوب.

وبقدر ما تشترط الكتابة الحرية الفردية، يقترن تلقّيها بمبدأ المساواة، لهذا أجدني أدرك ذلك الشعور الشائع في أوساط الروائيين والمسرحيين والرسامين والسينمائيين برفض الموزانة والمحاصصة، وتأليف ما لا يؤلف من القلوب والعقول والضمائر؛ شعور يتجلى في صور شتى، لعل أظهرها ذلك المقرون بالتعفف عن التشارك في قضايا واشتغالات، وأحيانا حتى في رفض الجلوس جنبا إلى جنب للحوار. والحق أنه لا يمكن اختزال الأمر في مجرد عنجهية زائدة، أو زيغ مرضي، وإنما بإدراك أن مساحة الإبداع ترفض المساواة، ونفي الفوارق، ومحو المسافات، ففي تخطيها وأد للقيمة، وتمريغ لرمزية الأسماء والنصوص والتجارب.

وليس من شك في أن المساواة مع ما يتصل بها من قيم العدالة والحقوق، في الوصول إلى المعارف والآداب والفنون، قاعدة لازمة لتشييد مجتمع متمدن، هو وحده الكفيل برعاية قيم المواطنة، إذ لا تقترن الثقافة بالنخب إلا في المجتمعات التقليدية، التي لا تعترف بالفردانية وإنما بالتبعية والولاء، ولعل من أهم إنجازات المجتمع الحديث هو بناؤه لشروط المساواة والعدالة الثقافية، بالنظر إلى سعيه إلى ضمان تعليم جيد لكل طبقات وشرائح المجتمع.

لكن في المقابل لا يمكن أن نتحدث عن مساواة في الإبداع إلا في المجتمعات الشمولية التي تصادر الحريات الفردية، وترتهن لسلطة "مجتمع الثقافة"، بضمان العدالة في النشر والتوزيع والحضور الرمزي، حيث يتحول الكاتب إلى عنصر ضمن جماعة متساوية الحقوق والواجبات. من هنا تتجلى العدالة بوصفها قمعا للطاقة الفردية وتعويما لرمزية الكتابة، فالشاعر والروائي والرسام والمسرحي هم نقيض الوجود ضمن منظومة تتكافأ فيها الأفعال والمقامات، ما دامت الكتابة رأسمالا فرديا وملكية لا تقبل التشارك، ومن شأنها دوما صنع ما اصطلح عليه النقاد العرب القدماء بـ"الطبقات"، من الشعراء إلى النحاة.

بيد أنه يجدر التمييز في هذا السياق بين المساواة القهرية، المنتجَة بتلفيقية ظاهرة، من قبل السّلط الثقافية، وتلك التي يفرزها تاريخ الفن والأدب، والممارسة النقدية والنظر الجمالي، إذ لا تلبث الأسماء والمقامات أن تتوارى فاسحة المجال لجوهر التيارات والمدارس والأساليب، ضمن أجناس التعبير المختلفة، بحيث يغدو التمييز التعبيري خاضعا لمقولات "التجانس" و"التناظر" و"التحاكي" والاشتغال ضمن دوائر تتشابه فيها المرتكزات والقواعد، فتنشأ المساواة بما هي محصلة تضافر قيم متماثلة، وإن انطوت على اختراقات نصية أو تصويرية.

لهذا يبدو تاريخ الفنون منطويا على جوهر عقلاني، حتى لا نقول ديمقراطيا، مناهضا لتسلط مجتمع الثقافة، المنتج لمقامات مصطنعة، في الآن ذاته الذي يبدو فيه مناقضا لتمركز العلامات والأسماء حول عقيدتها وصورتها المتخيلة عن إبداعاتها، والتي تفرز دوما أوهاما مولدة لحروب طفولية بصدد الحضور والنشر وتقاسم المنصات والمعارض وترتيب الأسماء، وهي في العمق لا تتجاوز مبدأ رفض المساواة في القيمة، ولو كانت في قرار القرار من الضعف والاختلال.

> لا نتحدث عن مساواة في الإبداع إلا في المجتمعات الشمولية التي تصادر الحريات الفردية، وترتهن لسلطة «مجتمع الثقافة»

وبقدر ما يبدو وعي الفردانية مركزيا في ممارسات الكاتب والفنان المعاصر، فإن ذلك لا يتنافى في العمق مع وعيه بضرورة الانتقال من الفرد/ المنتج الثقافي إلى المؤسسة الثقافية، التي هي نقيض الجماعة، وما تفترضه من اشتراطات المساواة داخلها، وفي هذا السياق يكاد يتماثل الانتساب إلى الحداثة الثقافية وما تستدعيه من تحصين للحرية والإيمان بالإبداع المستقل، وتجاوز أمراض المساواة التلفيقية، بتشييد المؤسسات الفنية والأدبية.

هل توفرت أسباب هذا الانتقال في الممارسة الثقافية العربية اليوم؟ الصورة توهم بظاهر يناقض العمق، مع تفاوت في تجارب التطور والارتكاس الثقافيين من المحيط إلى الخليج، وربما من أصدق القراءات التي واكبت الظاهرة، في السنوات الأخيرة تلك التي قامت بها الناقدة العراقية فاطمة المحسن في كتاب صدر قبل أربع سنوات بعنوان "تمثلات الحداثة في ثقافة العراق"، حيث تخلص في فقرة دالة من متن الكتاب إلى اعتقاد يرى أنه "في الأربعينات والخمسينات (من القرن الماضي) بدأت الصياغة العملية لبناء المؤسسة الثقافية في العراق، أي وضع النظم والضوابط لمأسسة الدولة حيث الدخول في عصر الحداثة ينهي الجماعات القديمة أو يضعفها ويقيم بدلها مؤسسات. هذا المشروع بشر به مثقفو النهضة وحاولوا خلق معادل له على المستوى الفكري، ولكن الأنساق الثقافية التي أشادو عليها أفكارهم، بقيت تحكمها عوامل الإعاقة القديمة التي كانت تسكن رؤاهم وتصوراتهم عن المجتمع والمعتقدات والقيم".

ولعل ما ينطبق على العراق في هذا الصدد قد ينطبق بدرجات متفاوتة على باقي الأقطار العربية، حيث ظل شرط الحرية وشرط المساواة مختلين في دلالاتهما ووظائفها، قاصرين عن إنجاح الانتقال الثقافي من الجماعة إلى الفرد، ومن الفرد إلى المؤسسة، الذي لا يستقيم بغيابه الانتماء إلى مجتمع الحداثة.

# سعاد العامري في رحلة مثيرة من فلسطين إلى دمشق

ميلانو (إيطاليا) - في رواية "دمشقيَ" للكاتبة الفلسطينية سعاد العامري ثمة تنافسية كبرى بين الشخصي والتاريخي والعائلي والخيالي، من دون أن يسود أحدها على الآخر، فالسرد فيها يتناوب على تقديم حيوات مترامية في دمشق بدايات وأواسط القرن العشرين، حيث تضعنا الكاتبة أمام نسيج حي من المصائر، والقول إن الشخصيات فيها من لحم ودم ليس بتوصيف واف، إذ أن حجارة دمشق وبيوتها وأزقتها وحاراتها وروائحها من لحم ودم أيضا. فهذه الرواية تعيد تعريف التوثيقي، وتشخص التاريخي، وتستخلص المتخيل من بين جدران قصر البارودي، كما لو أنها تطبق على دمشق متلبسة بأحداث عائلية مصيرية متداخلة مع تواريخ مفصلية.

تتبع الرواية حياة بسيمة الفلسطينية، ورحلتها إلى دمشق جراء زواجها من نعمان البارودي الدمشقيّ، وفلسطين التي جاءت منها لا تغيب إلا لتظهر في أرجاء الرواية، كذا هي سلالة هذا الزواج: البنات والأبناء والحفيدات والأحفاد، ولتكون مآلات هذه الأسرة البرجوازية الشامية العريقة وما ألمّ بقصر البارودي معادلا لدمشق (عاصمة بلاد الشام) وتحولاتها وكشّافا لفصل من فصولها، وإن كانت سعاد العامري في ذلك تسرد الماضي فإنها تضعنا أمام أسئلة عن الحاضر وربما عن المستقبل.

هذا ما جعل أنطونيا فراشوني تكتب في وصف أجواء الرواية "كمن يدخل عاصفة هوجاء، تجعلنا العامري نشعر ونحن نقرأ، منذ الصفحات الأولى، تاريخ جميع أفراد عائلتها، طريقتهم في الوجود، ومصيرهم، ولكنها في الوقت نفسه، تأخذ بيد القارئ ببطء عبر هذه المدينة التي لا تزال تستحضر حتى يومنا هذا، على الرّغم من الأنقاض، أحلاما رائعة من ألف ليلة وليلة".

وتضيف "لكن المؤكّد، كما يبدو لي، أن العامري تفعل أكثر من ذلك، وهو أمر مهم للغاية بالنسبة إليها كفلسطينية، وبالنسبة إلينا نحن القراء، بتأليفها هذه الرواية؛ إنها رحلةٌ لا تقتفي أثر عائلتها عبر ثلاثة أجيال فحسب؛ إنما هي رحلة في الذاكرة، في ما يسمح لها بتأمل وجودها، ولنتأمل معها ما آلت إليه سوريا وفلسطين معا".

ونذكر أن رواية "دمشقيَ" صدرت حديثا عن منشورات المتوسط – إيطاليا، في طبعتها العربية، حيث ترجمها عن الإنكليزية عماد الأحمد، كما صدرت الرواية كذلك في طبعة المتوسط الفلسطينية "الأدب أقوى" التي توزع مع الدار الرقمية.